التَّضحية في سبيل الله: قيمةٌ إيمانيَّةٌ بارزةٌ في غرس الإمام ابن باديس

Sacrifice for the sake of God: a prominent faith value in the implantation of Imam Ibn Badis

د. سمير يحيى سمراد
جامعة وهران1/أحمد بن بلَّة

تاريخ الإرسال: .... تاريخ القبول: .... تاريخ: النشر: ....

الملخَّص:

لقد كان غرس الإمام ابن باديس في أرض الجزائر غرسًا إيمانيًّا بامتياز، كيف لا، وهو عالمٌ ربَّانيٌّ قرآنيٌّ وقدوةٌ في كلِّ قيمةٍ إيمانيَّة يتوقَّف عليها بناء الشَّخصيَّة الإسلاميَّة.

وتستوقفُنا قيمةٌ بارزةٌ مِن تلكم القيَم الإيمانيَّة في الإمام ابن باديس وفي غرسه، ونعني به: تلامذته ورجاله، وهي: التَّضحية في سبيل الله، فكيف كانوا يفهمونها؟ ومن أيِّ منطلقاتٍ تخلَّقوا بها وعاشوا لأجلها؟ وما هي مظاهر تلك القيمة الإيمانيَّة في حياتهم وتصرُّفاتهم ومواقفهم؟

التضحية في سبيل الله مفهومٌ قرآنيٌّ وقيمةٌ إيمانيَّةٌ كثر الحديثُ عنها في القرآن وفي الأحاديث النَّبويَّة، تنوَّعت مجالاتُها وتعدَّدت ميادينُها.

والتَّضحية في سبيل الله في شخص الإمام ابن باديس شملت عدَّة دوائر، فنجدها في حياته الاجتماعية فالعائليَّة فالشَّخصيَّة، وفي كلِّ دائرةٍ من هذه الدَّوائر نجِدُ أمثلةً حيَّةً.

والإمام ابن باديس قد سلكَ طرائقَ عِدَّةً لِغرسِ قيمة التَّضحية وخُلُق الفِدَاء، فدعا إليها وطبَّقها في دروس عمليَّة تطبيقيَّة، بطريق القدوة والتأثُّر، وبطريق التَّدريس والتَّلقين والكتابة، وبطريقِ المواقف العمليَّة الَّتي شهَّرَته وجعلتهُ إمامًا للمُضَحِّين.

الكلمات المفتاحيَّة: التَّضحية، قيمة إيمانيَّة، ابن باديس، القدوة، التَّدريس، المواقف.

Abstract:

we are struck by a prominent value of the faith values in Imam Ibn Badis and in his implantation, which is: sacrifice for the sake of God, so how did they understand it? What are the manifestations of that faith value in their lives, actions and attitudes?

Sacrifice is a value of faith that has been widely discussed in the Qur'an and in the hadiths. Its fields varied and its fields multiplied

The sacrifice of Imam Ibn Badis included several circles, so we find it in his social life, the family, and the personality, and in each of these circles we find vivid examples. Imam Ibn Badis used several methods to inculcate the value of sacrifice, so he called for it and applied it in

practical lessons, by example and influence, by teaching, indoctrination and writing, and by practical situations.

Keywords:
Sacrifice ; teaching; Ibn Badis; influence; practical situations.

مقدِّمة:

لقد غرس الإمام عبد الحميد ابن باديس في أرض الجزائر غرسًا صالحًا رعاه بنفسه الكبيرة الحانية العطوف، وحاطه بروحه قبل جسده النَّحيف الضَّعيف، لقد كان يؤمن بأنَّ استرداد الجزائر العربيَّة المسلمة، وإحياءها بعد مواتها، وتقويتها بعد ضعفها، وتثبيت أركانها بعد تشتُّتها وانحلال عُراها، إنَّما سبيله بعث الشَّخصيَّة العربيَّة الإسلاميَّة في الفرد قبل الجماعة، لِيُكوِّن الجماعةَ بعدُ مِن أفراد نَحَتَتْهُم القيم الإيمانية نَحْتًا، وصبغتهم الأخلاق الإسلاميَّة صبغًا، وصقلتهم المِحَن والشَّدائد صقلًا، فأَجْلَت فيهم معادن الرِّجال القرآنيِّين، وأظهرتهم بمظهر المؤمنين الصَّادقين.

لقد كان غرس الإمام ابن باديس إيمانيًّا بامتياز، إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم، قد ربط الله على قلوبهم، وكان واسطة ذلكم الرَّبط ومنشئُ أولئك الفتيان: عالمٌ ربَّانيٌّ قرآنيٌّ وزعيمٌ روحانيٌّ وقدوةٌ في كلِّ قيمةٍ إيمانيَّة يتوقَّف عليها بناء الشَّخصيَّة الإسلاميَّة.

وتستوقفُنا قيمةٌ بارزةٌ مِن تلكم القيَم الإيمانيَّة في الإمام ابن باديس وفي غرسه، ونعني به: تلامذته ورجاله، وهي: التَّضحية في سبيل الله، وشعارهم فيها قول القائل – الصَّحابي القدوة-:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا/عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي

وسأتناول هذا الموضوع وفقَ الخطة الآتية، بعد:

. المقدِّمة:

1/ التَّضحية في سبيل الله: مفهومها، مجالاتها، آثارها:

1-1. مفهوم التَّضحية:

1-2. مجالات التَّضحية:

1-3. آثار التَّضحية:

2/ التَّضحية في سبيل الله في شخص الإمام ابن باديس:

2-1. التَّضحية في الدَّائرة الاجتماعيَّة:

2-2. التَّضحية في الدَّائرة العائليَّة:

2-3. التَّضحية في الدَّائرة الشَّخصيَّة:

3/ طرائق ابن باديس في غرس التَّضحية في نفوس تلامذته:

3-1. التَّضحية بطريق القدوة (أو القدوة الصَّامتة):

3-2. التَّضحية بطريق التَّدريس والتَّلقين (مشافهةً وكتابةً):

3-3. التَّضحية بطريق المواقف العمليَّة (أو القدوة النَّاطقة):
. الخاتمة:

1 / التَّضحية في سبيل الله: مفهومها، مجالاتها، آثارها:

1-1. مفهوم التَّضحية:

لم أجد لفظة التَّضحية بالمعنى الشَّائع العصري في القواميس والمعاجم القديمة الأصيلة، ولا في شواهد القرآن الكريم والحديث الشَّريف وأقوال الأوائل القدماء، وإنَّما هو تعبير ولفظ محدثٌ، لكنَّه بمعناه ومفهومه ودلالاته موجودٌ مستعمَلٌ بألفاظٍ أُخَر، أذكر منها: لفظ (بذل النَّفس والمال)، ولفظ (تسليم النَّفس والمال)، ولفظ (الفِدَاء)، ولفظ (الشِّراء) و(البيع)، وكلُّ هذه الألفاظ والمعاني تندرجُ في لفظة (الجهاد في سبيل الله)، فبِها يُعَرَّفُ، حيثُ نجدُهم يُفسِّرون الجهاد بأنَّه: «بذلُ النَّفسِ في سبيل الله»[1]. بل نجدهم يفسِّرون بها الإسلامَ كلًّا وإجمالًا، قالوا في تعريف الإسلام: «إنَّه تسليمُ النَّفسِ والمالِ لحقوقِ اللهِ»[2]. ويُزادُ على الألفاظ المذكورة: لفظ (الإيثار) و(المواساة)، وهما يدخلان في باب الإحسان.

ومن شواهد القرآن: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ [البقرة: 207]، «أي: يبيعُ نفسَه. والمعنى: يُقدِمُ على تضحيةِ نفسِهِ»[3].

ومنها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، «بيَّن أنَّ من علامة الإيمان الكامل التَّضحية بالنَّفس والمال في سبيل الله بِبَذْلِهِمَا في تقوية دعائم الدِّين وإعلاء شأنه وخَضْدِ شوكة العدوِّ بكُلِّ السُّبُلِ المِمْكِنَة»[4].

ومنها: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، «صَوَّرَ جهادَ المؤمنين وبَذْلَ أموالهم وأنفسهم فيه وإثَابَةَ اللهِ تعالى لهم على ذلك الجنَّةَ بِالبيعِ والشِّرَاء»[5].

ومنها: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، «والإيثارُ على النَّفس مع الحاجة قِمَّةٌ عُلْيَا. وقد بلغ إليها الأنصار بِمَا لم تشهد البشريَّةُ لَهُ نظيرًا»[6].

ومن شواهد الحديث: ما رواه البخاري: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[7]، قال شُرَّاحُه: المراد بهذا الحديث بَذْلُ النَّفْسِ دُونَه ﷺ[8].

ومنها: عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «دخلت امرأةٌ معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة، فأعطيتها إيَّاها، فقَسَمَتْهَا بين ابنتَيها ولم تأكل منها، ثمَّ قامت فخرجت، فدخل النَّبيُّ ﷺ علينا فأخبرته، فقال: «مَن ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»». وفي لفظ مسلم: «جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتَين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تَمَرَاتٍ، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فِيهَا تمرة لتأكلها، فاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فشَقَّت التَّمرة الَّتي كانت تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا... » الحديث[9]. فهذه المرأة أعطتها عائشة تمرةً، فآثَرَتْ بِهَا ابنتَيْهَا مع جُوعِهَا.

ومنها قصَّة الأنصاري وامرأته في إكرام الضَّيف ومواساته وإيثاره[10]، قال النَّووي: «وقد أثنى الله ورسوله ﷺ على هذا الرَّجل وامرأته فدَلَّ على أنَّهما ... أَحْسَنَا وأَجْمَلَا رضى الله عنهما. وأمَّا هو وامرأته فآثَرَا على أنفسهما برضاهما مع حاجتهما وخصاصتهما، فمدحهما الله تعالى وأنزل فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. ففِيهِ فضيلةُ الإِيثَارِ والحَثُّ عليه. وقد أجمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطَّعام ونحوه من أمور الدُّنيا وحظوظ النُّفُوس»[11].

ومن شواهد السِّيرة وكلام الأوائل لفظ (الفِداء) و(التَّفدية)، ومنه قولهم: جُعلتُ فِدَاكَ، وجعلني الله فِدَاكَ، وقولهم: فِدَاءً لك، فَدَتْكَ نفسي، وفَدَيْتُكَ بنفسي(12)، وفِدَاكَ أبي وأُمِّي، وفديناك بآبائنا وأمَّهاتِنا، وقالوا في تفسيرها: «أَبْذُلُ نفسِي ومَن يَعِزُّ عليَّ في رضاكَ وطاعتِك»[13]. ومعنى الفِدَاء في كلٍّ: البذل والإعطاء للإنقاذ والحِفظ والوقاية ودفع المكروه. فهذه التَّفديةُ هِي بمعنى التَّضحية.

2-1 . مجالات التَّضحية:

من خلال العرض السَّابق لمفهوم التَّضحية وشواهدها في القرآن والحديث وكلام الأوائل، نوجزُ الكلام عن مجالات التَّضحية في أربعة أمور:

. **التَّضحية في سبيل الله،** أي: في ذاتِ الله، وابتغاءَ مرضاته، وإعلاءً لكلمتِهِ، وإظهارًا لدينه، وإقامةً لشعائره، وتُرَادِفُ هذه الجهاد في سبيل الله، الَّذي يكون بالنَّفس والمالِ، وباليد واللِّسان، كما قال ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ...** » الحديث[14]، وذلكَ أعمُّ مِن أن تكون التَّضحيةُ بالقتال والتَّعرُّض لإتلاف النَّفس وإزهاق الرُّوح، فقد تكون بالتَّعرُّض للنَّفي والإخراج من الوطن والإبعاد عن الأهل أو بالتَّجريد من الأموال والممتلكات، أو بالضَّرب أو السَّجن أو تقييد حرِّيَّة التَّصرُّف، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾... الآية [الحج: 40]، وقد تكون بالتَّعرُّض للَّوم والتَّوبيخ والسَّبِّ والشَّتم والأذى القولي وغيره، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ الآية [آل عمران: 111]، وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية [آل عمران: 186]. ومجالُ هذه التَّضحية على عمومه هو الأصل، وما سيأتي من المجالات هو فرعٌ عنه أو لِنَقُلْ مظهرٌ من مظاهره.

. **التَّضحية في سبيل الدِّفاع عن رسول الله:** وإن كان من الدِّفاع عن رسول الله الدِّفاع عن دينه ومِلَّتِه، لكن المراد الدِّفاع والنُّصرة لشخصه وبَذْل النَّفْس دُونَه ﷺ، والوقاية له، والانتقام ممَّن آذاه، وتعرَّض له بسوء، ومن أمثلة ذلك في السِّيرة: قوله ﷺ: «**مَن لِكَعْبِ بنِ الأشرف، فإنَّهُ قد آذى الله ورسوله**»، فانتدبَ له محمَّد بن مسلمة وجَرَّدَ سيفه وفَتَكَ به في داره وسط حجرته داخل حصنه، في خطوةٍ أشبه بالمخاطرة والعمليَّة الفدائيَّة[15]، ومن الأمثلة: هجاء حسَّان بن ثابت للمشركين، وقد قال له ﷺ: «**أَجِبْ**

عَنِّي»، وقال: «**اهْجُهُمْ وجبريلُ معك**»[16]. وفي يوم أحد، شُلَّت يدُ طلحة، كان يُنافحُ عن رسول الله ﷺ، ويَقيهِ بيده[17].

. **التَّضحية في سبيل المبدأِ الإسلامي** والعقيدة الإسلاميَّة والقواطع الدِّينيَّة والثَّوابت المسلَّمة، الَّتي لا تقبَل التَّنازل والشَّأن فيها التَّصَلُّب وتسليم النَّفسِ دونها، وهي من الثَّبات على الدِّين والاسْتِمْسَاك بالإسلام والتَّشبُّت بالعقيدة. وأوضح مثالٍ على ذلك في القديم: محنة خلق القرآن، الَّتي امتحن بها خلفاء بني العبَّاس الإسلام وأئمةَ الدِّين، في عواصم الدَّولة وأقاليمها شرقًا وغربًا، وإمامهم في تلك المحنة: الإمام المبجَّل أحمد بن حنبل، وأئمَّة آخرون من الحنابلة والمالكيَّة والشَّافعيَّة في بغداد ومكَّة ومصر والقيروان، وفيهم وفي غيرهم ألَّف المؤرِّخ المحدِّث أبو العرب القيرواني «كتاب المِحَن»[18].

ومن أمثلة ذلك في العصر الحديث: جهاد ومقاومة وتضحيات علماء «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين» في وطن الجزائر، فكلُّها كانت لأجل العقيدة والشَّخصيَّة والهويَّة الإسلاميَّة، تحمَّلوا في ذلك كلَّ صور الحيف والظُّلم والاضطهاد، لم تُرْهِبْهُم قوَّة ظالمٍ ولم تُثْنِهِم سطوةُ غاشِم، مردِّدين شعارَ: «وَلْيَعْلَم كلُّ ذي موسى أن موسى الله أحَدّ، وكلُّ ذي سَاعِدٍ أَنَّ سَاعِدَ اللهِ أشَدّ، وكلُّ مُتربِّب ومُتكبِّرٍ أَنْ لا إله إلَّا اللهُ واللهُ أكبر»[19].

. **التَّضحية في سبيل الوطن**: إنَّ الوفاء للوطن والإخلاص للوطنيَّة لدى أمَّةٍ تدين بدين الإسلام، ليُعَدُّ من أوجب الواجبات، ومِن أعظمِ ما تُمليه الغرائز المستقيمة والفِطَر السَّويَّة، فالأوطان حبيبةٌ إلى النُّفوس، تستمدُّ قوَّتها منها – أي: من الأوطان– وتجد فيها صُورَتَها وَوِجْدَانَهَا ومَنَازِعَهَا، ومَيْلُ النَّفس إلى من يشاركها سكنى الوطن ومحبَّتُه لها هُو مثلُ ما يشعر به الإنسان من الحبِّ نحو أهل بيته منذ طفولته. والوطنيَّة الإسلاميَّة الصَّادقة هي الَّتي تستدعِي التَّضحية لأجل مصالح ومنافع الأُمَّة ولأجل المحافظة على مقوِّماتها ودفعِ العوادِي عنها[20]، والوطنيَّة الإسلاميَّة الصَّادقة هي الَّتي تجعلُ المرءَ يُضحِّي براحته ومصالحه الشَّخصيَّة لأجل مصلحة الأمَّة وأبناء الوطن، حيثُ كانُوا يُرَادُون على دينِهم والتَّخلِّي عن شخصيَّتهم. ومِن رُوَّاد هذه الوطنيَّة في العصر الحديث: الإمام عبد الحميد ابن باديس، ومثالٌ واحدٌ يشهد على ذلك، أنَّهُ سافر إلى المشرق بنيَّةِ الحجِّ وربَّما بنيَّة الهجرة والاستقرار هناك نهائيًّا، وبالفعل عرضَ عليه شيخه المهاجر المجاور بالمدينة الشَّيخ حمدان الونيسي القسنطيني قطع الصِّلة بالوطن، وأشار عليه شيخٌ آخر هنديٌّ بالرجوع وخدمة الوطن، فاستقرَّ على رأي الثَّاني، قال: «**فنَحْنُ لا نُهَاجِر، ونحنُ حُرَّاسُ الإسلام والعربيَّة والقوميَّة بجميع مدعِّماتها في هذا الوطن**»[21].

هذا، والتَّضحية في سبيل الله أو في سبيل الوطن الإسلامي لا يتعارضان بل يتوافقان ويتَّحدان ويمتزِجان حتَّى لا تكاد تفصلُ بينهما، قال ابن باديس حينما سُئِلَ هل هناك تعارضٌ بين الإسلام والوطنيَّة. فقال: «**كلَّا، لا تعارض بين الإسلام والوطنيَّة، وعندي أنَّ الجزائري لا يكون وطنيًّا حتَّى يكون مسلمًا، ولا يكون مسلمًا حتَّى يكون وطنيًّا**»[22].

3-1 . آثار التَّضحية:

تكمن آثارُ التَّضحية ونتائجُ بَذْل النَّفس والمال وثمارُ الفِدَاء والتَّفدية في جميع مجالاتها في ثلاثة أشياء:

. **الشَّهادة وشراء الخلود الأخرويِّ الأبدي**: وأعني بذلك: شراءُ جنَّة الخُلْد، والفوز بالبقاء والخُلُود، وقد تظاهرت نصوص القرآن والحديث على التَّرغيب في الجهاد -قرين التَّضحية- بالوعد بالجِنَان وإحلال الرِّضوان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة:111]، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [الصف: 10- 11]. ومن شواهد الحديث: «**تَوَكَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَن يَتَوَفَّاهُ أَن يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ**... » الحديث[23]. والمضحِّي الباذل نفسَه في ساحة القتال قد نالَ في الإسلام لقبَ الشَّهيد ووُعِد بدرجة الشَّهادة من أعالي الدَّرجات وحاز أفضل الكرامات، ففي الحديث: «**مَا مِن أَحَدٍ يَدْخُلُ الجنَّةَ يُحِبُّ أن يَرْجِعَ إلى الدُّنْيَا وأَنَّ له ما على الأرض مِن شيءٍ غَيْرُ الشَّهيد، فإنَّهُ يَتَمَنَّى أن يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عشرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَة**»[24].

. **النَّصْر والغَلَبَة والفَتْح مع الأجر والغنيمة**: فالتَّضحية الَّتي هِي مِن صُور الصَّبر والمصابرة والرِّباط والمرابطة، قد تكون نتيجتُها النَّصرُ والغلبَةُ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الآية [النِّساء: 74]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المؤْمِنِينَ﴾ الآية [الصف: 13]. وسيُكتبُ لهذا المجاهِد المضحِّي حياة العزِّ والكرامة والرِّفْعَة والسَّنَاء، فيعيش حميدًا يحمده الأوَّلون والآخرون كما يُحمَدُ كلُّ بطلٍ شجاعٍ.

. **العُذْرُ عند الله وعند النَّاس**: إن لم يكن مع التَّضحية نصرٌ، ولم يكن ظفرٌ، إن لم يتحقَّق لمن ضحَّى وجاهد وقاوم وناضَل، إن لم يتحقَّق له مطلوبه ولم يظفر بحاجته، فإنَّه وَلا بدَّ وأن يقعَ أجرُهُ على اللهِ، على تضحيته وبذله واستجابته، ولن يرتفعَ عنه اسم المجاهِد البطل في الأرض ولا في السَّماء، وهُو وإن لم يرجع ظافرًا لم يُكتَب أنَّهُ فرَّ مِن زحف أو هربَ وتولَّى في مواجهة أو قصَّر في إعداد وتوانَى في عَزم، ستُخلَّد بطولته وشجاعتهُ، وسيعذرهُ العاذرون ولن يجدوا سبيلًا إلى عَيبِه أو شَينِهِ أو سوءِ الأحدوثةِ عنه، وعلى لسانه نطق الشَّاعر الجاهليُّ حين قال:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ * وَأَيْقَنَ أَنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا * نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[25].

. **ضَرْبُ المَثَل للأجيال اللَّاحِقَة وحثُّهُم على قَفْو أَثَرِ مَن سَلَف**: لم يُكتب -عادةً- لجيلٍ من النَّاس نصرٌ ولا ظفرٌ، إلَّا وسبقَ ذلك محاولاتٌ وتقدَّمتهم بطولاتٌ لأسلافهم، فما ثبتَ الآخِر إلَّا لِمَا رأى مِن صمود وثبات الأوَّل، ولم يزل اللَّاحقون يعملون على استنهاض الهِمَم وتقوية العزائم وشحذ النُّفوس بالتَّذكير بجهاد الأسلاف الماضين واستبسالهم وعدم تراجعهم واستشهادهم بشرف أو انهزامهم بشرف،

بعدما استنزفوا كلَّ طاقتهم ولم يدَّخروا شيئًا من قوَّتهم. فلئن فنيت أجسادهم فلقد بقيت وخُلِّدت تضحياتهم، وكأنَّها تنادي على النَّاس بعدَهم تقول: خذوا بعدَنا بالأثَر وَارفعوا مِن جديدٍ رايةَ الظَّفَر.

2/ التَّضحية في سبيل الله في شخص الإمام ابن باديس:

لقد ضرب الإمام ابن باديس أعظمَ الأمثلة في التَّضحية والبذل والفِدَاء لأجل دينه الإسلام ووطنه الجزائر، وأتوقَّف عند ذلك من خلال ثلاث دوائر:

2-1 . التَّضحية في الدَّائرة الاجتماعيَّة:

عاد عبد الحميد ابن باديس من رحلته المشرقيَّة، وانتصبَ في قسنطينة مدرِّسًا حرًّا، يرمي إلى تحقيق أمنيَّته وهي تأسيس كلِّيَّة دينيَّة إسلاميَّة[26]، تَكُونُ مبعث أمَّة ونهضة بلد عانى مِن تجهيل أبنائه وطمس معالم شخصيَّته، حتَّى قيلَ إنَّ هذا الشَّعبَ قد مات، ولم يعُد يمتُّ بِصِلَةٍ إلى العربيَّة[27]، لقد صادفَ الإمام وهو بصدد بعث الحياة في أمَّته، صادفته عراقيل شتَّى ونُصِبت أمامه عقباتٌ، فكان في كلِّ ذلك امتحانٌ لقوَّة إيمانه وبراهين على ثباته وتضحياته.

وأُولَى هذه التَّضحيات:

أ . **رَفْضُهُ الوظيف** وتولِّي أيِّ منصبٍ حكوميٍّ، ولو كان دينيًّا، أي: منصب مفتي أو منصب مدرِّس رسمي، فأَن ينتصبَ ابن باديس مدرِّسًا حرًّا، فتلك عقبةٌ كؤودٌ، لم يتجاوزها إلَّا بتدخُّل والده وكان تاجرًا كبيرًا مَلَّاكًا ونائبًا بلديًّا ومنتخبًا له سمعته عند الحكومة والإدارة. وكان بإمكانه أن يُحصِّلَ وظيفًا بسهولة، لكن الوظيف ثمنه أن يكون عبدًا للحكومة، وعينًا من عيونها، حيثُ تكونُ إرادته من إرادتها، ويكون أداةً من أدواتها، لقد نصح لابن باديس مَن قَبْلَهُ مِن العلماء والمفتين، كشيخه حمدان الونيسي الَّذي أكَّد عليه بالبعد عن كلِّ وظيف[28] ليحافظ على استقلاليَّته وليستطيع القيام بمهمَّته بصفة عالم حُرٍّ مستقلٍّ يخدم دينه وأمَّته، والمثال أمامه وهو المفتي المولود بن الموهوب القسنطيني الَّذي لم يُذكر عنه عملٌ ذو بالٍ لأُمَّته وأبناء وطنه، ولم يُشارك في نهضتهم، بل قاوم الشَّبيبة النَّاهضة وحَرَّض على المصلحين وعلى ابن باديس بالخصوص ومَنَعَهُ من التَّدريس في جامع قسنطينة الكبير[29]. إنَّ رفض الوظيف في حدِّ ذاته سيعرِّض العالم الحُرَّ إلى كلِّ خطر، فليس له حصانةٌ تحصنه ولا دعامة تدعمه، وهو عرضةٌ لكلِّ تهمة وهدفٌ لكلِّ عداوة. زيادةً على أنَّ رفض الوظيف يُفوِّت على العالم الحُرِّ امتيازات وخصوصيَّات وتسهيلات وتحفيزات مادِّيَّة ومعنويَّة.

ب . **زهده في العمل الدُّنيوي**، وفي التِّجارة وتسيير أملاك والده وأسرته: كان بإمكان ابن باديس أن يكون تاجرًا وملَّاكًا كبيرًا كوالده، وأن تكون له مناصب دنيويَّة وأن يتبوَّأَ مجالسَ نيابيَّة بلديَّة أو ماليَّة ونحو ذلك، لكنَّهُ آثر العمل الأخروي وَأن يكون سعيهُ سعيًا بالعلم والدِّين، وآثر أن يقوم بمهمَّة الأنبياء أن يكون معلِّمًا، وأن يُنَادَى عليه بابن باديس المدَرِّس، وهكذا عرفه النَّاس واشتهر عند القاصي والدَّانِي.

قال (رحمه الله): «**إِنَّنَا لو كُنَّا نُرِيد المال لكان لنا– بِحمدِ الله– فيما قَسَمَهُ اللهُ لنا مِن فضلِهِ لأُسْرَتِنَا فوق الكفاية، أو لكان لنا في أبواب التِّجارة والفلاحة المُعْرَضَة لنا– بِإِذنِ الله– أسبابٌ إليهِ مَتِينَة**»[30].

2–2 . التَّضحية في الدَّائرة العائليَّة:

لقد دَعَم الوالد محمَّد المصطفى ابن باديس ولده عبد الحميد، وهيَّأ له ما به أصبح مدرِّسًا بقسنطينة وصاحبَ معهدٍ علميٍّ شهيرٍ بمساجدها، ودَعَم ولده في أن يساهم في تأسيس مطبعة وجريدة عربيَّة، فكانت جريدة «النَّجاح»، **أَسَّسَ ابنُ باديس مطبعتَها – مطبعة النَّجاح– بِدَرَاهِمِ أبيهِ، ولم يربح معهم فلسًا واحدًا**[31]، ثمَّ اخترقها جواسيس الإدارة الحكوميَّة الاستعماريَّة، فغادرها[32]، ليؤسِّس لنفسه صحافةً حُرَّةً ومطبعةً مستقلَّة، بمعاونةِ بعض إخوانه **والاستعانةِ بذهبِ امرأتِهِ وابنةِ عمِّه، تبرَّعت بهِ عليهِ**[33]، فكانت «المنتقِد»[34]، وفيها أعلن عن الدَّعوة الإصلاحيَّة العامَّة، وجاهر بانتقاد الاعتقادات الفاسدة، وكثر القيل والقال عن كُتَّاب جريدة «المنتقِد» الَّتي لم تحمل اسم ابن باديس وإنَّما حملت اسم لسان الشَّباب النَّاهض، فألصق المرجفون كلَّ كتابةٍ فيها بابن باديس، فكتب الوالدُ يُبرِّئُ ولدهُ مِن أن يكون ممَّن لا يرعى للأولياء حرمتهم أو ممَّن يؤذيهم ولا يعترف بولايتهم[35]، فقفَّى الولدُ على مقال أبيه، وذكرَ عقيدتَه بكلِّ وضوحٍ وجهر بدعوته بـ«بيانٍ لا لبسَ فيه»[36]، ثمَّ عطِّلت جريدة «المنتقِد»[37]، فعاود ابن باديس الكرَّة فأصدر «الشِّهاب»[38]، والظَّاهر أنَّ الدَّوائر الحكوميَّة وجواسيسها وعملاءَها ضغطوا أكثر على الوالد وأكثرُوا عليهِ في شأنِ ولده، فكان ما قرأناه من خلال سطور مراسلة ومكاتبة مبكِّرة بين ابن باديس وصاحبه وعضده في الدَّعوة: الطَّيِّب العُقْبِي الشَّهير، ومن فقراتها نعلم أنَّها كانت القطيعة بين الولد ووالده، وأنَّ الوالد تخلَّى عن دعمه مادِّيًّا ومعنويًّا، وأنَّ ابن باديس قرَّرَ أن لا يتخلَّى عن دعوته ولا عن مشروعه الدِّيني العلمي الدَّعوي، وأنَّه ماضٍ غير آبِهٍ بخذلان والده له، وها هو نصُّ كلامه بحروفه بتاريخ 30 صفر 1345هـ موافق 7 سبتمبر 1926م: «...**أخي! إنَّ سيدي والدي رأى أن أترك المشروع، وأمرني بذلك، فأَبَيْتُ، وصمَّم على رأيه وصمَّمتُ، حتَّى أدَّى ذلك إلى انفصالي عنه، وإعلانه البراءة منِّي، راعى ما يُرضي بعض الأفراد وما يحمي سمعته وسُمعتي في تلك الدَّوائر، وراعيتُ مصلحةَ الأُمَّة والدِّين والواجب والمبدأ، فضحَّيتُ بكلِّ شيءٍ في هذا السَّبيل، غير متألِّمٍ إلَّا تألُّمي الَّذي اضطرَّني إليه، فأنا اليومَ يا أخي! ناءٍ عن الأهل، صفر الكفّ، منفرد في سبيل المبدأ والواجب**... »[39]. هذا والمشروع المراد هُو مشروع وبرنامج وخطَّة جريدة «الشِّهاب» سياسيًّا ودينيًّا، ونظرةٌ في المقال الافتتاحي لإدارة «الشِّهاب» في العدد 52، بتاريخ 25 صفر 1345هـ، 2 سبتمبر 1926م، والَّذي بعنوان «نحن صُرَحَاء والصَّريح لا يخاف: سياستنا واحدة من يوم التَّأسيس»،

يتَّضِح له تخوُّف بعض الجهات والدَّوائر من مشروع «الشِّهاب» إلى حدٍّ أنَّها أشاعت أنَّه مشروعٌ معارضٌ لفرنسا، وهذا الَّذي جعل والد ابن باديس يَقِفُ ذلك الموقف ثمَّ يُعلن المفاصلة.

. تأسَّست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1931م، وانتخب عبد الحميد ابن باديس رئيسًا لها بالإجماع، ولم يجدوا خيرًا من المدرِّس يقود سفينةَ العلماء، وسرعان ما أسفر العلماء عن برنامجهم الإصلاحي وقانونهم الأساسي التَّفصيلي، فدُبِّرت مكيدة للاستيلاء على الجمعيَّة فلم تُفْلِح، وكَشَّرت الإدارة الحكوميَّة عن أنيابها، وحاربت العلماء وعرقلتهم واعترضت مشاريعهم وضيَّقت وشدَّدت[40]، ثمَّ كانت محاولةٌ أخرى أخيرة لحمل ابن باديس على التَّخَلِّي عن رئاسة الجمعيَّة، فضغطت على والده واستغلَّت ضائقته الماليَّة وديونه المتراكمة، فجمعت بين الوالد وولده، وخيَّرت ابن باديس بين البرِّ بوالده وإنقاذه من الضَّائقة وبين البقاء في الجمعيَّة. فكان امتحانٌ آخر لابن باديس، فتجاوزه مرَّةً أخرى بثباتٍ وإيمانٍ ويقين، وكانت تضحية من أعظمِ التَّضحيات الَّتي سَجَّلها التَّاريخ.

قال له مدير الشُّؤون الأهليَّة المستشرق مِيرَانْتْ: «أبوك أخي، وأنت ولدي، هاهي ثلاثة ملايين، وها هو قصرك في برج الكيفان –فُورْدْلُو سابقًا–، وحُلَّ جمعيَّة العلماء، وعَيِّن أفرادها في بعض الوظائف»، فقال لوالده: «**وهل يذبحُ الوالدُ ولدَه؟ إنَّ الموتَ أفضل لي من الحياة إن فعلتُ هذا**»[41].

وكتب إلى مُدَبِّرِ المكيدة مدير الأمور الأهلية مِيرَانْتْ اللَّعين، أن لا مساومةَ ولا مفاوضةَ في أمرٍ ومشروعٍ يتوقَّفُ عليه حياة أمَّة ونهضة شعب وحراسة وطن.

وها هو نصُّ مكتوب الشَّيخ بحروفه بتاريخ 29 محرم 1354هـ=24/ 05/ 1932م:

«**السَّيِّد المدير المحترم! بعد التَّحيَّة المقرونة بالتَّقدير لجنابكم، فإنَّني نظرتُ فيما عرضتموه عليَّ مِن لُزُوم الاِنسحاب مِن الجمعيَّة، فرأيتُ أنَّني بانسحابي منها أكون قد أيَّدتُ أَضْدَادِي وقَلَبْتُ علَيَّ أحبابي، فأصبحتُ عدُوًّا للجميع، وفي هذا الاِنتحارُ المعنويُّ والمَوتُ في الحياة، وشَرُّ المَوت موتُ الحياة وإنِّي أستطيعُ أن أموتَ الموتَ الحقيقي مرَّةً واحدةً، ولكنِّي لا أستطيعُ أن أموتَ موتَ الحياة، فلهذا قرَّرتُ مع احترامي وتقديري لإِحساسكم أن لَا أنسحبَ مِن جمعيَّةٍ ما دخلتُها إلَّا لِقَصْدِ الخير، وما صدرَ مِن أقوالها وأعمالها إلى اليوم إلَّا ما هوَ خيرٌ. وتفضَّلوا بقبول احترامي وعواطفي نحو شخصِكم**»[42].

«لقد ضغطت الإدارة على الوالد المسكين ليتبرأ من ولده، فكتبَ في جريدة (لَادِيبِيشْ دِي كُوسْتُنْطِينْ) يتبرَّأ من ولده عبد الحميد بحُجَّة أنَّه عصاه. فرَدَّ الشَّيخ الإمام على أبيه، وكتب في نفس الجريدة قائلًا: إنَّني كنتُ ابنَه يوم أَنْ كان أبًا لي، أَمَّا اليوم، فقد شاء أن يقطع الصِّلَةَ فَلَهُ ذلك»[43].

لقد خرج ابن باديس أو أُخرج مضطرًّا من بيت أسرته، وغادرَ مسكن عائلته، وحُرِمَ من صِلَةِ أهله وحُرِموا من صِلَتِهِ، وحُرمَ العيشَ في بيتِ الثَّراء ورغد العيش وسعة المال، ليأويَ إلى غرفةٍ في مدرسةٍ حُرَّةٍ،

لا يتناولُ إلَّا ما يُقيمُ الصُّلبَ. ليسَ له مصدر رزق ولا دخلٌ إلَّا نصيبٌ يسيرٌ من إيرادات مطبوعات المطبعة الإسلاميَّة الَّتي هُو أحد المساهمين فيها.

قال تلميذه الشَّيخ محمَّد الغسيري: «لقد ترك منزل والده وهو من الثَّراء بمكانٍ، وسكن غرفة واحدةً في مدرسةٍ متواضعةٍ، وهي مدرسة التَّربية والتَّعليم في قسنطينة... هناك في المدرسة المتواضعة كان عبد الحميد يسكن ويعيش على رغيف وكأسة لبن وبعض الزبد والتِّين المجفَّف والزَّيتون ومشتقَّاته لا غير، وكان يكلِّف بعض طُلَّابه لإحضارها له عند انتهاء دروسه قريبًا من منتصف النَّهار». وقال: «لم يكن في هذه الغرفة إلَّا مكتب وسرير وعدَّة كراسي خشبيَّة وجهاز إذاعة، وكفَى»[44].

. استمرَّ ابن باديس على هذا الحال، يُجاهد ويُناضل ويُثابِر ويُقارع الاستعمار وأذنابه، يُدرِّس ويُربِّي ويَبْنِي العقول ويصنع الرجال، ويُحارب على كلِّ الجبهات، لم يعرف راحةً كالَّتي عرفها لِدَاتُهُ وأقرانُهُ، ولا التفتَ يومًا إلى نفسه، ولا تفرَّغ لحاجيَّاته، ولا توقَّفَ لعلاج أمراضه، حتَّى صرعه المرضُ الَّذي أنهك قواه وقضى على جسده النَّحيف، فسارع إليه أهلُهُ فنقلوه من تلكم الغرفة الضيقة إلى بيت عائلته الفسيح، ليجِد عندهم الرِّعايةَ الَّتي افتقدَها أعوامًا، وزاره الطَّبيب، ولكن بعد فوات الأوان، ثمَّ كان الأجل المحتوم في اليوم المعلوم. نعم، لقد مات ابن باديس «**بمرضٍ قديمٍ لم يَعْتَنِ بِهِ لِتَفَانِيهِ في التَّعليم**»[45]. وكتبت الدَّوائر الاستعماريَّة أنَّ الرَّجل الوحيد الَّذي لم تنل منه الإدارة هو ابن باديس[46].

2–3 . التَّضحية في الدَّائرة الشَّخصيَّة:

ربَّما استطعنا أن نفصل بين الدَّائرتين الاجتماعيَّة والعائليَّة وبين الدَّائرة الشَّخصيَّة، لنقول: تضحيات ابن باديس لم تقتصر على الدَّائرتين الاجتماعيَّة والعائليَّة: بِتَرْكِ الوظائف والمنصب وأبواب التِّجارة وكسب المال وعدم الاستجابة للضَّغْطِ العائلي. تضحياتُ ابن باديس على الدَّائرة الشَّخصيَّة أتناولها في الأمثلة التَّالية:

أ . التَّضحية في سبيل تحصيل العلم: سافر ابن باديس وهو شابٌّ غضٌّ طريٌّ إلى تونس والتحقَ بجامع الزَّيتونة لإتمام دراسته، وقضى فيها نحو أربع سنواتٍ مغتربًا عن أهله، واجتاز امتحانات الدِّراسة باقتدار وتصدَّرَ قائمة دفعة النَّاجحين، وصار بذلك حاملًا لشهادة العالِمِيَّة[47]. أربع سنواتٍ مِن التَّضحية لأجل تحصيل العلم والتَّزوُّد بالمعارف، بعيدًا عن الأهل والدِّيار، تاركًا حياةَ الرَّاحة وَالدَّعة والاستجمام والاِسترواح، وخاضَ حياة التَّعَب والسَّهَر، تلك هِي حياة الطَّالب الغريب الرَّاغب في النَّجاح واجتياز الامتحانات النِّظاميَّة، ولن يجد في حياته هذه ما كان معتادًا عليه في بيت التَّرف ومعيشة الرَّفاهية، وأكثرُ الطَّلبة حينها في دار الغربة من الفقراء، يكادُ لا يجد الواحد منهم ما يسدُّ به جَوْعَتَه، وَيَقِي بهِ جَسَدَهُ مِن البرد، ربَّما وفَّرت عائلة ابن باديس لابنها كلَّ ما يحتاج إليه وَكَفَتْهُ كلَّ مؤنةٍ، وما يطلبُ شيئًا إلَّا وأرسلوا به إليه، ولكن يبدو أنَّ ابن باديس آثرَ أن لا يتميَّز عن باقي زملائه، وأرادَ أن يعيش عِيشَتَهُم،

وخشي أن يُنْسِيَهُ النَّعِيمُ ما قد سافر لأجله، فهو الآن ابن باديس التِّلميذ الَّذي يريد أن يبلغ المعالي بكدٍّ وكدحٍ وصبرٍ ومصابرة، لا ابن باديس المترَف المترفِّه المدَلَّل في بيتِ أهله، وقد قالها يومًا لأحد تلامذته قد أعياه السَّهر ولم يراجع الدَّرس، «**أخبَرَهُ أنَّه لَمَّا كان طالبًا مثلَه لم يكن يملك غطاءً يكفيه لتغطية رأسه وقدميه في آن واحدٍ، رغم أَنَّهُ بإمكانه أن يفترش الرِّيش! وهذا حرصًا على ما هو أهمُّ وهو الدِّراسة، ثمَّ نصح تلميذه بأن يَكِدَّ ويَجِدَّ في طلب العلم**»[48].

ويقصُّ ابن باديس على تلامذته قصَّة تعبه وسهره في سبيل التَّحصيل يريد أن يوحي إليهم بما ينبغي أن يكونوا عليه، يقول: «**كُنْتُ أسهر اللَّيل للدِّراسة والمطالعة**، مستعينًا ببعض المنبِّهات، لكنِّي حين أحسُّ أنَّ النَّوم أصبح يغالبني، ولم تعد المنبِّهات العاديَّة تنفع في دفعه، عمدتُ إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقي على حافته حتَّى إذا أخذتني تهويمة من الوسن زلَّ بي مرفقاي أو أحدهما فيلامس الآجر باردًا، فأستيقظ وأجدِّد مطالعتي أو مراجعتي حتَّى أفرغ منها»[49].

ب . التَّضحية في سبيل نشر العلم: ليس من السَّهل أن يقتحم ابن باديس ميدان التَّعليم في مجتمع عمَّ فيه الجهل والظُّلم، وكانت فيه عدَّة جبهات حجرَ عثرةٍ في سبيل نشر العلم، ربَّما تحدَّث كثيرٌ مِن النَّاس عن نجاحات ابن باديس في بلده قسنطينة، وصار ينعتونها ببلد العلم والعلماء، لكنَّ القليل مَن يَعلمُ أنَّ هذه البلدة – قبل ذلك– قد ألحقت بابن باديس متاعب كثيرة وناله منها مظالم عديدة، وأنَّه تعبَ كثيرًا في إصلاحها وإصلاح أهلها، حتَّى بلغ به اليأس منهم، أن قال فيهم: «إذا قرأ القسنطينيُّون تكلَّمت البقرة!»[50]. ثمَّ إنَّ الله تعالى نصره عليهم، بعد تضحياتٍ جسامٍ وأتعابٍ مُضْنِيَة.

ج . التَّضحية في سبيل تكوين العلماء والدُّعاة: لقد وهب ابن باديس حياته للعلم والتَّعليم، ولم يترك دروسه ولم ينقطع عنها حتَّى في الظُّروف العصيبة إلَّا لظروف قاهرة من مرضٍ ألزمه فيه الطَّبيب بالرَّاحة، أو مصلحة عموميَّة ممَّا يمسُّ جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين ونحو ذلك، لقد مات أخوه سليم ابن باديس[51] فلم يقطع دروسه ولم يفقده تلامذته، ومات ابنه الوحيد إسماعيل فلم يفوِّت مجالسه التَّعليميَّة والتحقَ بكرسيِّ الدَّرس في موعده[52]، «ولما عُوتبَ في ذلك أجاب: **أيُّ مبرِّرٍ لي أمام الله والواجب إذا ما تخلَّفتُ عن الدَّرس وأضعتُ على الطَّلبةِ وقتًا من أوقاتهم الثَّمينة؟**»[53].

وأقام والي قسنطينة (عامل العمالة) تكريمًا لصحفيِّي قسنطينة (مديري ومحرِّري الصُّحف)، فحضر الجميع إلَّا ابن باديس «**تَخَلَّفَ لِعُذْرٍ قَاهِرٍ**»[54] لم يُسمِّهِ! وأفصحت عنه جريدة «النَّجاح» القسنطينيَّة، وأنَّه التزاماته مع تلامذته: «**اعْتَذَرَ بِإِقْرَاءِ الدَّرْسِ في تلك السَّاعة**»[55].

لقد شهد بعض تلاميذ ابن باديس القدامى أنَّه تعب معهم كثيرًا، وأنَّه تعب مع بعض الطَّلبة أكثر وأكثر[56].

قال الأستاذ أحمد توفيق المدني للشَّيخ ابن باديس يومًا وقد رأى عليه علامات الفاقة والإعياء: «يا أخي! أما آمنتَ بأَنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؟ أَمَا قرأتَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:

77]؟»، فأجابه في هدوء: «كَلَّا، ما عملتُ طولَ حياتي إلَّا بهذه الآية الكريمة. **إنَّ نصيبي من الدُّنيا هو بثُّ العلم** وإعداد النَّاشئة ليومٍ رهيبٍ وتجهيز الشَّعب... » إلخ[57].

د . التَّضحية بمُوَاسَاة الطَّلبة والتَّلاميذ: لم يكن ابن باديس يَسْتَأْثِرُ على تلامذته بطعامٍ ولا شرابٍ ولا لباسٍ، فقد كان يُكبُرُ عليه أن يشبع ويجوعوا، ويأكل أحسن الطَّعام ويأكلوا أردأه، ويلبس أجود الثِّياب ويلبسوا أسوأها.

ينقل واحدٌ ممَّن عاصره أنَّ الشَّيخَ «خرج من مقصورته ذات يومٍ فطلب من السَّيِّد زواوي مولود — وهو من تجَّار بني عبَّاس وممَّن لهم اتِّصالٌ بالشَّيخ- أن يبحث عمَّن يشتري له نصف لتر من اللَّبن، وأعطاه آنية، فرآها فرصةً لإكرام الشَّيخ فذهب بنفسه إلى شَوَّاء واشترى له صحنًا من اللَّحم المختار، فعاد إلى الشَّيخ وهو يكاد يطير من شدَّة الفرح، ولما قدَّمه إليه استشاط غضبًا، وقال له في لهجة شديدة صارمة: **ألا تعلم أنَّني ابن مصطفى بن باديس، وأنَّ أنواعًا مختلفة من الطَّعام اللَّذيذ، تُعَدُّ كُلَّ يوم في بيته لو أردتُ التَّمتُّع بالطَّعام، ولكنَّ ضميري لا يسمح لي بذلك، وطلبتي يُسِيغُون الخبز بالزَّيت، وقد يأكله بعضهم بالماء»**[58].

ومثالٌ آخر، وهو أنَّ أحد المحبِّين للشَّيخ اشترى له من تونس هديَّة ثمينة هي عمامة من النَّوع الرَّفيع، تركها عند السَّيِّد زواوي مولود ليقدِّمها إليه، فقال له: «**بِعْهَا يا مولود! وابْعَثْ بِثَمَنِهَا إلى حساب الطَّلَبَة**». وبعد حوار بينهما، ساده انفعالٌ، وبعد إلحاح شديدٍ منه ليقبلها، قال الشَّيخ في هدوء: «**مولود! كم عدد الطَّلبة والشُّيوخ الَّذين يلبسون هذا النَّوع من القماش في الجامع الأخضر؟ الثُّلث؟ أو الرُّبع؟ أو الثُّلثان؟** فقال الزواوي مولود: قد يكون الثُّلث. فقال الشَّيخ في جدٍّ وصرامةٍ: **ثِقْ جازمًا أنِّي لا ألبسه حتَّى يلبسه الثُّلثان**»[59].

هـ . التَّضحية بتَحَمُّلِ نفقات تعليم الطَّلبة وإيوائهم وغيرها من المشاريع الخيريَّة: ومن تضحيات الإمام ابن باديس في الدَّائرة الشَّخصيَّة أنَّه تحمَّل ديونًا لا لمصلحته الخاصَّة، بل لقيامه بمشاريع علميَّة دعويَّة عامَّة، لم يُحدِّدها، ولا نراها إلَّا مصاريف ونفقات تعليم الطَّلبة وإيوائهم وإطعامهم ونحو ذلك، ففي مكتوبٍ (رسالةٍ خاصَّةٍ) منه إلى أحد إخوانه وخواصِّ أحبابه، يقول فيها بعد الدِّيباجة: «**أمَّا بعد: فقد أحاطت بي ديونٌ بسبب ما أنا قائمٌ به من المشاريع الخيريَّة العامَّة لا بسببٍ شخصيٍّ، ولمَّا ثقلَ عليَّ حملها، التجأتُ — بعد الله تعالى- إلى خواصِّ أحبابي الَّذين أثِقُ بمودَّتهم وتقديرهم للأعمال وكتمهم للأسرار، فجعلتُ على كلِّ واحدٍ منهم ألف فرنك إن شاء عطيَّةً وإعانةً على الخير، وإن شاءَ سَلَفًا لمدَّة عام. وأنا أنتظر جوابكم شاكرًا، سواءٌ أجبتُم أو اعتذرتُم...** »[60].

د . التَّضحية بتحمُّل أعباء رئاسة جمعيَّة العلماء: من الأمثال الَّتي ضربها ابن باديس للتَّضحية بأعماله: تحمُّل عبء الرِّئاسة الثَّقيل، وهُو بقبوله الرِّئاسة يعلمُ ويُقرِّرُ أنَّه يلزمُ لها التَّضحية، الَّتي يصفها بقوله: «**إنَّها أوَّلُ شروط الرِّئَاسَة**»[61]. كان لابن باديس في احتجاجاته على الحكومة «طريقتان: الأولى باسم

رئيس جمعيَّة العلماء، وهي الاحتجاجات الَّتي لا تخرج عن دائرة القانون. الثَّانية باسمه الخاص، وهي الاحتجاجات اللَّاذعة الَّتي يصف فيها الاستعمار بكلِّ نقيصة، ويفضح فيها مكائده ويكشف مخازيه، وسألناه ذات مرَّة — يقول الأستاذ حمزة بوكوشة– لماذا هذه التَّفرقة في الاحتجاجات؟ فقال: **الاحتجاجات الَّتي أُمْضِيها باسم جمعيَّة العلماء أُحَافِظُ فيها على الجمعيَّة. والاحتجاجات الَّتي أُمْضِيها باسمي لا أُحَافِظُ فيها على شخصي**»[62].

3/ طرائق ابن باديس في غرس التَّضحية في نفوس تلامذته:

3–1 . غرس خُلُق التَّضحية بطريق القُدوة (أو القُدوة الصَّامتة):

كلُّ ما تقدَّم من مباحث وأمثلة ونماذج عن التَّضحية في شخص ابن باديس، كان على مرأى ومسمع من تلامذته، يتناقلونها فيما بينهم ويجتمعون على ذكرها والحديث عنها، ويبلِّغها الشَّاهد الغائب منهم، ولما كانت شخصيَّة ابن باديس تستولي على النُّفوس وتهيمن على العقول وتأخذ بالقلوب والأبصار والأسماع، فما مِن شكٍّ في أنَّ تلامذته كانوا يحرصون على الاقتداء بخصاله ويحملون أنفسهم على التَّشبُّه به في سيرته ويتسابقون في الأخذ عنه والاقتباس منه والتَّطبُّع بطباعه والانغماس في صبغته ونقمُّص شخصيَّته، وأبرزُ تلك في شيخهم: خُلُق التَّضحية والبذل، وكأنَّ الشَّيخ لاحظ في تلامذته أنَّهم يأخذون عنه كلَّ شيءٍ، ولما كان في تضحياته ما لا يطيقونه وما عدَّه ابن باديس من نفسه من قبيل الحماقات، قال لهم يومًا: «**خُذُوا عنِّي كلَّ شيءٍ إلَّا الحماقة**». قال تلميذه الشيخ عمر دردور معلِّقًا: «إنها ليست حماقة تلك الَّتي يقولها الشَّيخ عن نفسِهِ، وإنَّما هي روحٌ قويَّةٌ في جسم ضعيف لا يقوى على تلبية كلِّ مطالب الرُّوح فيَضيق بذلك صدرًا. فاعتبر ذلك حماقةً رحمه الله»[63]. كان ابن باديس قدوةً لتلاميذه، لأنَّه كان يرى أنَّ التَّربية المثاليَّة تتحقَّق بواسطة الاقتداء والتَّأثُّر، وأنَّ ذلك أحدُ طُرُق التَّكوُّن والتَّكوين[64].

3–2 . غرس خُلُق التَّضحية بطريق التَّدريس والتَّلقين (مشافهةً وكتابةً):

من جملة دروس ابن باديس لتلامذته دروسٌ في الأدب العربي، ومنها مختاراتٌ من الشِّعر الفحل، وكان يُمْلِي عليهم قصائدَ وعيونًا من ديوان شعر الحماسة، يشرحها لهم، ويستخلص لهم المعاني السَّامية والقِيَم العالية، يغرسُ في نفوسهم بذلك معاني البطولة والشَّجاعة وإجابة النِّداء، ومعاني التَّضحية والبذل والفِدَاء، ومعاني الإيثار والمواساة والعطاء، كان بتلكم الإفادات والإنشادات يَنفِي عن نفوسهم الضَّعف والجُبن والخَوَر والاستسلام والخوف والتَّراجُع. لقد كان ابن باديس يشرح لهم معلَّقة عنترةَ العَبْسِي–ذلك العبد الَّذي حرَّرَ نفسَه بنفسِهِ، وتعلَّم الفروسيَّةَ والقتال–، الَّتي يقول فيها:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا/قِيلُ الفَوَارِسِ: وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ.

وفي ختامها يقول:

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ/لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَي ضَمْضَمِ

الشَّاتِمَيْ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمْهُمَا/والنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِي

إِنْ يَفْعَلَا فَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا/جَزَرَ السِّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ.

كان ابن باديس يُكوِّن في تلاميذه كلَّ معاني الرُّجولة لخوض غِمَارِ التَّضحيات بخُطًى إيمانيَّة ثابتةٍ.

وأنشد ابن باديس يومًا تلاميذه قولَ الحماسي:

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي هُذْلٍ/وَقُلْنَا القَوْمُ إِخْوَانُ

عَسَى الأَيَّامُ أَنْ يُرْجِعْ/نَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا

فَلَمَّا صَرَّحَ الشر/فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى العُدْوَا/نُ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِي/نَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ.

ثمَّ قال الشَّيخ لهم: لا تحسبوا أنَّ الشَّاعرَ كان يقولُ هذا وهو خاملٌ جالسٌ مثل جلستنا، بل كان فوقَ فرسه وسلاحه بيده، وهو يُنشِد مُلَوِّحًا به: **صَفَحْنَا عَنْ بَنِي هُذْلٍ**...[65].

. ونجد ابن باديس يجمع تلامذته في ختام السَّنة الدِّراسية ويوصيهم بهذه الوصايا العظيمة: «اتَّقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلُّمه، وانشروه، **وتحمَّلوا كلَّ بلاءٍ ومشقَّةٍ في سبيله، وَلْيَهُنْ عليكم كُلُّ عزيزٍ، وَلْتَهُنْ عليكم أرواحكم لأجله**»[66].

. ثمَّ نجد ابن باديس يغرسُ في النُّفوس خُلُقَ التَّضحية مرَّةً أخرى في كتاباته في مجلَّته، وهي مدرسة سيَّارة، تُلقِّنُ فيا مبادئ الإسلام والوطنيَّة وأخلاق الإيمان ومعاني الرُّجولة، وفي مناسبة عيد الأضحى سنة 1352هـ،1934م، أنشأ خُطبةً جُمَعِيَّة في «سِرِّ الضحيَّة»، وساق قصَّةَ الذَّبيح إسماعيل، ثمَّ وقف مُذكِّرًا بقوله: «**لِيَتَعَلَّم المسلمون التَّضحيةَ لله بالنَّفس والنَّفيس**، وليعلموا أنَّ المسلمَ مَن صدقَ قولُهُ فعلَه، ومَن إذا جاء أمرُ الله كان للهِ كلَّه»، ثمَّ قال واعظًا: «فتدبَّروا أيها المسلمون في هذا السِّرِّ العظيم، **ومَرِّنُوا أنفسكم على التَّضحية** في كلِّ وقتٍ في سبيل الخير العامِّ بما تستطيعون، ولا تنقطعوا عن التَّضحية ولو ببذل القليل، حتَّى تصير التَّضحيةُ خُلُقًا فيكم في كلِّ حين»[67].

3-3 . غرس خُلُق التَّضحية بطريق المواقف العمليَّة (أو القدوة النَّاطقة):

أذكر أربع وقفاتٍ وقفها ابن باديس بنفسِهِ، ضرب بها أعظمَ الأمثلة على التَّضحية بالنَّفس والإقدام في الخُطُوب:

1 . في حوادث قسنطينة ضدَّ انتهاكات اليهود في أوت 1934م:

وقف الإمام وقفةً بطوليَّةً مشرِّفةً في غمرة الحوادث وفي أثناء الصِّراع المسلَّح بين اليهود والمسلمين، ثمَّ أسمعَ وزير الدَّاخلية الفرنسي الَّذي حضر بنفسه إلى قسنطينة قولةَ الحقِّ، فقال له: «يا جنابَ الوزير! إنَّ المسلمين تحمَّلوا غطرسة اليهود وطغيانهم واستيلاءهم على خيرات البلاد وتجارتها، وهم إلى جانب ذلك يتمتَّعون بما يتمتَّع به الفرنسيُّون من حقوق في الإدارة وحمل السِّلاح بدون ترخيص... كلُّ هذا الحَيْف قد

يصبر عليه المسلمون، ولكن وبكلِّ تأكيدٍ لا يتحمَّلون انتهاك حرمة دينهم أو المساس بشعائر مقدَّساتهم، **وهُم في سبيل الدِّفاع عنها يُفضِّلُون الموت على الحياة**»[68].

2 . في الاحتفال المئوي باحتلال قسنطينة سنة 1937م: كان ابن باديس في تلمسان لمناسبة افتتاح دار الحديث بتلمسان، وعند أطلال مدينة المنصورة «حَرَّرَ رحمه الله نداءً يَدْعُو فيه الأُمَّة الجزائريَّة للصِّيام وملازمة المساجد بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة»، يقول الوطني المغربي إبراهيم الكَتَّاني الَّذي كان شاهدًا: «ولما قرأه علينا جعل أحد تلامذته يُثَبِّطُ عزيمته ويُحَذِّرُهُ مغبَّةَ نشره، فغضب الشَّيخ رحمه الله وقال: **يا أبنائي! إنَّكم تعلمون أنِّي لم أطلب أيَّ شيءٍ لنفسِي، ولكنِّي اليومَ أطلبُ لنفسي شيئًا واحدًا، هو أن تسمحوا لي أن أكون أَوَّل ضحيَّةٍ في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتَّضحية في سبيلها**. ثمَّ التفتَ إليَّ وقال لي: **هنيئًا لكم أنَّكم تجدون في المغرب السَّبيل للتَّضحية في سبيل بلادكم، أمَّا نحن في الجزائر فإنَّنا نتحرَّق على التَّضحية في سبيلها، ولا نجد للتَّضحية سبيلًا**»[69].

يقول تلميذه الشيخ أحمد حماني: «وكان الشيخ بعد طبع البيان [النِّداء] – وقراءته عليهم- [أي: أعضاء جمعيَّة التَّربية والتَّعليم بقسنطينة وأعضاء شُعبة جمعية العلماء وأعضاء الجمعيَّات المشارِكة] قد سألهم عن توزيعه؟ فسكتوا، لعلمِهِم بخطورتِه – في مثل تلك الظروف الإرهابيَّة- عليهم وعلى الشَّيخ. فقال لهم: **أنا أوزِّعُهُ!**... فقال السَّيِّد الطاهر بن بهات التَّاجر العبَّاسي – بلسانهم جميعًا-: كلَّا! بل نحن نوزعُه، ونكفيكَ مُؤنتَه»[70].

3 . في حوادث بسكرة مع البوليس في فيفري سنة 1938م:

قبل عيد الأضحى بأسبوع، أي: في 5 ذي الحجة 1356هـ، موافق 1938/2/6م، تدخَّلت الشُّرطة بالقوَّة في الانتخاب الجاري بمدينة بسكرة: «لِتُوَجِّهَهُ كما تُحب، وأَسْفَرَ تدخُّلُها عن قتيلين وأربعة جرحى من المسلمين المسالمين. وكان البوليس من ورائه كلُّ قوى الحكومة هو المهاجم وهو المقاتل للشَّعب الأعزل من كلِّ سلاح. وشيِّعت جنازة الشَّهيدين في حفلٍ خاشعٍ رهيب، حضرته شخصيَّات من داخل المدينة وخارجها مع الجموع الغفيرة من الشَّعب. وأَبَّنَ الشَّهيدين الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس بخطابٍ ارتجاليٍّ مؤثِّر»[71]. وفي احتفال عيد الأضحى ألقى محمَّد الصالح رمضان –تلميذ ابن باديس- بمدرسة القَنْطَرَة، قصيدةً بعنوان «الأضحى والتَّضحية»، نشرها له ابن باديس في مجلَّته «الشِّهاب»، ج12، م13، (ص541- 542)، وفوقها عنوان كبيرٌ «**هو الدَّم ما أدراك ما الدَّم يا فتى؟**»، هو أحد أبيات القصيدة، الَّتي لم ينشرها الشَّيخ كاملةً، ومنها:

هو الدَّم ما أدراك ما الدَّم يا فَتَى؟/ إذا أنتَ لم تُجْرِ الدِّمَاءَ تَكَرُّمَا

هو الدَّمُ يُعْطِي للذَّلِيلِ مَهَابَةً/ولِلحُرِّ إِعْزَازًا وَفَخْرًا ومَغْنَمَا

ومنها:

هنيئًا لكم بالعيد إذ عاد بالدِّمَا/تُرَاقُ عَلَى حَقٍّ لَنَا وعلى الحِمَى
هو العيد عيد النَّحر قد نحرت له/ نفوسٌ أَبِيَّاتٌ أَبَيْنَ المظالِمَا
هنيئًا وبُشْرَى للجزائر كلِّها/بمستقبلٍ سعدٍ أغرٍّ وأفخَمَا.

وأشار إلى هذه القصيدة الأستاذ محمَّد الحسن فضلاء، وذكر أنَّ محمَّد الصالح رمضان أخذ هذه الأبيات الثَّلاثة من قصيدته، وضَمَّنَهَا في رسالة التَّهنئة لأستاذه بعيد الأضحى[72].

4 . في حادثة برقيَّة الولاء، في سبتمبر 1939م: لقد رفضت جمعيَّة العلماء –بالأغلبيَّة– إرسال برقيَّة تأييدٍ لفرنسا سنة 1939م عند قيام الحرب العالميَّة الثَّانية، كان ذلك عن طريق التَّصويت في اجتماع الأعضاء الإداريِّين الخاص، ثمَّ انتقلت القضيَّة إلى الاجتماع العام، الَّذي تحضره الجماهير، «فقال عبد الحميد على رؤوس الملأ: أقول صراحةً – واجتماعُنا هذا لا يَخْلُو مِن جواسيس رسميِّين أو غير رسميِّين– إنِّي لن أُمْضِيَ البرقيَّة، **وَلنْ أُرْسِلَهَا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي، [وأَشَارَ بِيَدِهِ إلى عُنُقِهِ**. لأنَّ ذلك يُعتبر قبولًا منِّي بتجنيد أبناء هذه الأُمَّة في الحرب]، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إنَّ لنا حياتين: حياة مادِّيَّة وحياة أدبيَّة روحيَّة، فتستطيع القضاء على حياتنا المادِّيَّة بِقَتْلِنَا ونَفْيِنَا وسَجْنِنَا وتَشْرِيدِنَا، ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسُمْعَتِنَا وشَرَفِنَا، فتَحْشُرَنَا في زمرة المتَمَلِّقِين. إنَّنَا قَرَّرنا السُّكوت»[73]، وقال: «**وأنا لا أنتظر إلَّا إحدى الحُسْنَيَيْنِ: فإمَّا حياة السَّعادة، وإمَّا الفوز بالشَّهادة**». ووقفَ بعد الشَّيخ أحدُ الأعضاء: «ليقول له بالحرف الواحد: **إذا كُنْتْ تْحَبْ تْرُوحْ لَلْحَبْسْ.... النَّاسْ عَنْدْهُمْ وْلِيدَاتْ**. ويُجِيبُ الشَّيخ بالحرف الواحد: **إذا كان أنتَ عندك أولاد، فأنا أعتبرُ أَنَّ أولاد الأُمَّة كُلَّهُم أولادي**»[74].

ولقد خَلَّدَ ابن باديس مواقفه في الفِدَاء والتَّضحية للأجيال في أبياتٍ يقول فيها:

أَشَعْبَ الجزائر رُوحِي الفِدَا/لِمَا فِيكَ مِنْ عِزَّةٍ عَرَبِيَّة

ويقول:

فَضَحُّوا وَهَا أَنَا بَيْنَكُم/بِذَاتِي وَرُوحِي عَلَيْكُمْ ضَحِيَّة[75].

. الخاتمة:

لقد كانت حياة الإمام ابن باديس — حقًّا – عامرةً بالدُّروس الحيَّة والنَّماذج المشرقة والقُدوات الصَّادِقة، علَّم الأمَّةَ الجزائريَّةَ خُلُقَ التَّضحية في سبيل الصَّالح العام، وكان في نفسِهِ مثالًا نادرًا في الفِدَاء وَإنكار الذَّات، رمزًا في التَّضحية، ومِن خلال تلكم المواقف والأمثلة الَّتي استعرضناها في هذه المباحث، يكونُ الإمام ابن باديس قد شرع لهذه الأمة سُننَ التضحية تَسْلُكُهَا من بعده، وخلَّفَ لهم سيرةً يَتَدَارَسُونَهَا، هِيَ: دروس تطبيقيَّة عاليةٌ في بَذْلِ النَّفْس والإِيثَار، منطلقاتُها إيمانيَّة، وأساسيَّاتُها قرآنيَّة، تطلُّعاتُها سعادةٌ دنيويَّة، وغاياتُها سعادةٌ أخرويَّة.

هذا، وَأُوصِي بإدراجِ حياةِ الإمام ابن باديس في شكلِ دروسٍ ومقرَّرات ومحاضرات ومناهِج دراسيَّة في شتَّى أطوار التَّربية والتَّعليم ومراحل التَّكوين والتَّأهيل، **على جِهَةِ التَّفصيل**، بإبراز المواقف، وَضرب الأمثلة، وتحليل الأحداث، واستخلاص العِبَر، وصولًا إلى الاِهتِدَاء والاقتداء، بِما نَجِدُهُ ونَقِفُ عليهِ عِندَهُ مِن قيمةٍ إيمانيَّة أو مبدإٍ قويم أو خُلُقٍ كريمٍ، ومن أبرز ذلك قيمة (التَّضْحِيَة). ولا يَجْمُلُ بِنا أن نتدارسَ سيرةَ الإمام ابن باديس بوجهٍ عامٍّ مُجمَلٍ، لا يتجاوزُ بطاقةً تعريفيَّةً أو سردًا لأطوارٍ ومحَطَّاتٍ خاليةٍ مِن التَّحفيز وَالاِعتبار فارغة مِن اسْتِجْلَاءِ أَسْرَارِ هذا الرَّجل الإلاهِيّ وَالوَلِيِّ الرَّبَّانِيّ.

. المراجع:

. الآلوسي، محمود أبو الثَّناء، تفسير الآلوسي، المسمَّى: روح المعاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

. الألباني، محمَّد ناصر الدِّين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، دمشق: المكتب الإسلامي، ط3، 1408هـ، 1988م.

. ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس، إعداد عمار الطالبي، الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1388هـ، 1968م.

. باعزيز، بن عمرو، من ذكرياتي عن الإمامين الرَّئيسين عبد الحميد ابن باديس ومحمَّد البشير الإبراهيمي، الجزائر: منشورات الحِبر، ط2، 2007م.

. البخاري، صحيح البخاري، اعتناء: عبد السلام بن علوش، الرياض: مكتبة الرشد، ط2، 1427هـ، 2006م.

. ابن بطَّال، شرح صحيح البخاري، ضبط نصَّه وعلَّق عليه: ياسر بن إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط2، 1423هـ، 2003م.

. حمَّاني، أحمد، الشَّيخ الصَّادق بن رابح حمَّاني، ذيل كتاب شهداء علماء معهد ابن باديس لأحمد حماني، البليدة: قصر الكتاب، 2004م.

. حمَّاني، أحمد، صراع بين السُّنَّة والبدعة أو القصة الكاملة للسَّطو بالإمام الرَّئيس عبد الحميد ابن باديس، قسنطينة: دار البعث، ط1، 1405هـ، 1984م.

. خير الدِّين، محمَّد، مذكِّرات الشَّيخ محمَّد خير الدِّين، الجزائر: المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، دون تاريخ.

. الدَّرَّاجي، محمَّد، عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، عين مليلة، دار الهدى، 2014م.

. دَرْوَزَة، محمَّد عزَّة، تفسير محمَّد عزة دَرْوَزَة، المسمَّى: التَّفسير الحديث، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيَّة، 1383هـ.

. الزَّبيدي، المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت: وزارة الإرشاد والإنباء، من 1385هـ= 1965م إلى 1422هـ= 2001م.
. الزِّركلي، خير الدِّين، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط17، 2007م.
. شنُّوف، سهيل، وبليلي، شكيب، من روّاد الإصلاح في الجزائر: الطيب العقبي وعبد الحميد ابن باديس- مراسلات مخطوطة وأحداث، الجزائر: موفم للنشر، 2015م.
. الصِّدِّيق، محمَّد الصَّالح، الإمام الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس من آرائه ومواقفه، قسنطينة: دار البعث، ط1، 1403هـ، 1983م.
. ابن عتيق، محمَّد الصَّالح، أحداث ومواقف في مجال الدَّعوة الإصلاحيَّة والحركة الوطنيَّة، الجزائر: منشورات دحلب، 1990م.
. ابن علجية، لَحْسَن، الشَّيخ عمر دردور: سيرة ومسيرة، عين مليلة: مطبعة دار الهدى، 2014م.
. ابن علجية، لَحْسَن، العلَّامة عبد السَّلام بن عبد الرَّحمن السُّلطاني حياته وآثاره، عين مليلة، دار الهدى، 2013م.
. عمراني، عيسى، المدرسة الباديسية ومناهجها الدِّراسيَّة، عين مليلة: دار الهدى، 2015م.
. القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، تونس: المكتبة العتيقة، والقاهرة: دار التراث، دون تاريخ.
. عيلان، الطَّيِّب، قسنطينة مدينة الجسور المعلَّقة، ويليه: ترجمة ابن معطي الزَّواوي، نشر وتعليق: العربي بن أحمد عيلان، قسنَّطينة: مؤسَّسة الإمام الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس.
. الغسيري، محمَّد، صور من حياة ونضال الزَّعيم الإسلامي والمصلح الدِّيني الكبير الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس، تقديم وتعليق أ.د. مسعود فلوسي، قسنطينة: مؤسَّسة الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس، 2018م.
. فضلاء، محمَّد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، الجزء الثَّاني، الجزائر، دار هومة.
. فيلالي، عبد العزيز، صور ووثائق الإمام عبد الحميد ابن باديس، عين مليلة: دار الهدى.
. قصيبة، ابن عمر، الشَّيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: صور من نشاطه خدمة للإسلام والعربيَّة والجزائر، (مطبوع على الآلة الراقنة)، دون تاريخ.
. قطب، سيد، تفسير في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق.
. المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
. المرتضي، أمالي المرتضى في التَّفسير والحديث والأدب، تصحيح بدر الدِّين النعساني، إيران: منشورات المرعشي النجفي، 1403هـ.
. مسلم، صحيح مسلم، اعتناء: نظر الفاريابي، الرِّياض: دار طيبة للنشر، ط1، 1427هـ، 2006م.

. المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، بيروت: دار المعرفة للطِّباعة والنشر، ط2، 1391هـ، 1972م.
. النَّووي، يحيى بن شرف، شرح النَّووي على صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التُّراث العربي، ط2، 1392هـ.

. الهوامش:

---

(1) انظر: المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير، (3/ 97).
(2) المَناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير، (264/2).
(3) دَرْوَزَة، محمَّد عزة، تفسير محمَّد عزة دروزة، (362/6).
(4) المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (145/26).
(5) الآلوسي، محمود أبو الثناء، تفسير الآلوسي، (11/ 26).
(6) قطب، سَيِّد، تفسير في ظلال القرآن، (3526/6).
(7) البخاري (15) ومسلم (44) عن أنس.
(8) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (1/ 66).
(9) البخاري (1418) ومسلم (2630).
(10) مسلم (2054) عن أبي هريرة.
(11) النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، (12/14).
(12) انظر: الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، (220/39- 225).
(13) القاضي عياض، مشارق الأنوار، (149/2).
(14) رواه أبو داود والنسائي عن أنس بن مالك. انظر: الألباني، محمَّد ناصر الدِّين، صحيح الجامع الصغير، (3090).
(15) البخاري (2510) ومسلم (1801).
(16) البخاري (3212) ومسلم (2485) عن حسَّان.
(17) البخاري (4063) عن قيس بن أبي حازم.
(18) انظر ترجمته في: الزِّرِكْلِي، خير الدين، الأعلام، (5/ 309). والكتاب طُبع بتحقيق الدكتور يحيى الجبوري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، طبعة ثالثة، سنة 1427هـ، 2006م.
(19) انظر: مجلَّة الشِّهاب، المجلَّد 1، الجزء 9، جمادى الأولى 1353هـ، أوت 1934م، (ص379).
(20) انظر: (الوطن والوطنية) لابن باديس، في: آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس (366/3- 367).
(21) ابنآثار الإمام عبد الحميد ابن باديس (165/6).
(22) باعزيز، بن عمرو، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، (ص63).
(23) البخاري (2787) عن أبي هريرة.
(24) البخاري (2817) ومسلم (1877) عن أنس.
(25) المرتضى، أمالي في التفسير والحديث والأدب، (ص631).
(26) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (233/2).
(27) انظر: مجلَّة الشِّهاب، المجلد 13، الجزء 3، ربيع الأول 1356هـ، ماي 1937م، (ص 134 و137).

(28) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (235/2).

(29) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (234/2).

(30) ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس، (503/3).

(31) انظر: جريدة الشِّهاب، العدد (9)، (ص12).

(32) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (236/2- 237).

(33) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (238/2).

(34) صدر العدد الأول في يوم عيد الأضحى 1343هـ، 11 جويلية 1925م.

(35) انظر: ابن باديس، محمد المصطفى، تكذيب إشاعة، جريدة المنتقِد، العدد (11)، 21 صفر 1344هـ 10 سبتمبر 1925م، (ص2-3).

(36) انظر: ابن باديس، عبد الحميد، بيان لا لبس فيه، جريدة المنتقِد، العدد (13)، 5 ربيع الأول 1344هـ 24 سبتمبر 1925م، (ص1).

(37) آخر عددٍ: صدرَ في 10 ربيع الثاني 1344هـ، 29 أكتوبر 1925م.

(38) صدر العدد الأول في: 25 ربيع الثاني 1344هـ 12 نفامبر 1925م.

(39) شنوف، سهيل وبليلي، شكيب، من رواد الإصلاح في الجزائر: الطيب العقبي وعبد الحميد ابن باديس، مراسلات مخطوطة وأحداث، (ص67).

(40) انظر: خير الدين، محمد، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، (103/1- 115)، وحماني، أحمد، وصراع بين السنة والبدعة، (2/ 239- 241).

(41) عيلان، الطيب، قسنطينة مدينة الجسور المعلقة، (ص97- 98).

(42) انظر: قصيبة، ابن عمر، الشيخ أحمد بن أبي زيد قصيبة: صور من نشاطه خدمة للإسلام والعربيَّة والجزائر، (ص15).

(43) ابن عتيق، محمد الصالح، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية، (ص174- 175).

(44) الغسيري، محمَّد، صور من حياة ونضال الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد ابن باديس، (ص100 و122).

(45) عيلان، الطيب، قسنطينة مدينة الجسور المعلَّقة، (ص98).

(46) ابن عتيق، محمد الصالح، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية، (ص182).

(47) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (232/2- 233).

(48) عمراني، عيسى، المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، (ص176).

(49) ابن ذياب، أحمد، ابن باديس وعوامل نجاحه في أداء رسالته، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص189).

(50) (ص96- 97).

(51) مات في آخر سنة 1937م. انظر: مجلَّة الشِّهاب، المجلد 13، الجزء 10، شوال 1356هـ، ديصامبر 1937م، (ص467).

(52) انظر: مجلَّة الشِّهاب، المجلد 15، الجزء 6، جمادى الثانية 1358هـ، جويلية 1939م، (ص254).

(53) شيبان، عبد الرحمن، الجانب الحيوي في شخص ابن باديس، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص128).

(54) انظر: مجلَّة الشِّهاب، المجلد 5، الجزء 2، شوال 1347هـ، 8 مارس 1929م، (ص37).

(55) انظر: جريدة النَّجاح، العدد (709)، الجمعة 20 رمضان 1347هـ، 8 مارس 1929م، (ص2).

(56) انظر: ابن علجية، لحَسَن، العلامة عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني حياته وآثاره، (ص55).

(57) المدني، أحمد توفيق، عبد الحميد ابن باديس الرجل العظيم، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص146).

(58) الصديق، محمد الصالح، الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس من آرائه ومواقفه، (ص42- 43).

(59) المصدر السابق، (ص44- 45).

(60) فيلالي، عبد العزيز، صور ووثائق الإمام عبد الحميد ابن باديس، (ص101).

(61) ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس (553/3).

(62) بوكوشة، حمزة، مع عبد الحميد ابن باديس في ذكراه، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص205).

(63) ابن علجية، لَحْسَن، الشيخ عمر دردور: سيرة ومسيرة، (ص104).

(64) الغسيري، محمَّد، صور من حياة ونضال الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد ابن باديس، (ص121 و122).

(65) حماني، أحمد، الشيخ الصادق بن رابح حماني، (ص16-17).

(66) ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس، (223/3).

(67) ابن باديس، عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس، (530/3).

(68) خير الدين، محمد، مذكرات الشيخ محمد خير الدين (255/1).

(69) خير الدين، محمد، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، (407/1).

(70) انظر: حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، (253/2).

(71) خير الدين، محمد، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، (293/1- 295).

(72) فضلاء، محمد الحسن، من أعلام الإصلاح في الجزائر، (171/2- 172).

(73) بوكوشة، حمزة، مع عبد الحميد ابن باديس في ذكراه، ومرحوم، علي، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص 210 و257).

(74) مرحوم، علي، لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، ضمن كتاب: عبد الحميد ابن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء (ص257).

(75) مجلَّة الشِّهاب، المجلَّد 13، الجزء 6، بواسطة مذكرات الشيخ محمد خير الدين (347/1-346) وآثار الإمام عبد الحميد ابن باديس (368/3).